الرسالة الحقيقية للمرأة

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

لا شك أن رسالة المرأة الحقيقية فى الحياة هى أن تكون عضوا نافعا فى المجتمع ، تعمل على رقيه والسمو به عن طريق وظيفتها الطبيعية المقدسة ، وظيفة الأم وسيدة المنزل . وليست دائرة المنزل صغيرة كما يتصور البعض، فهى رحبة متشعبة لها خطورتها ومسئولياتها التى لا يتحمل أعباءها غير المرأة ، ولا يدير دفتها الفنية غير يد المرأة .

وكما أن الرجل على قوته أجهل الناس بالقيام بأعباء المسئولية الداخلية لدائرة المنزل ، فالمرأة على ضعفها أعرف الناس بتسييرها وحسن إدارتها بطريقة سهلة رسمتها لها طبيعتها الأنثوية الرقيقة .

وبديهى أن المرأة لو تخلت عن تلك الوظيفة التى هى حق لها ولا دخل فيها لأحد سواها ، لصار مصير الأسرة حتما إلى الفشل والتفكك ، ومتى تهدمت الأسرة انهار الأساس ، ولا يمكن عندئذ أن يستقيم للأمة عماد إذا فقدت أساسها الذى تعتمد عليه فى بناء مجدها . فالأسرة هى أساس المجتمع ، وهى الوحدة التى يتكون من مجموعها بناء الجيل ، فإذا تصدع ركن من بناء الوحدة تداعى البناء كله ، وانهار المجتمع .

وإذا كان بعض النساء يزاحمن الرجال الآن فى ميادين الأعمال ، فهن أعرف من غيرهن بأنهن يغالطن طبيعتهن ، وأنهن يقفن بها موقفا عكسيا . فلا شك أن طبيعة المرأة ورقتها أكبر دليل على أنها لم تخلق للنضال فى ميادين الأعمال الشاقة التى تتطلب مجهودا قاسيا لا يتحمله غير الرجل ، ونضالا جبارا لا يقوى عليه سوى الرجل .

ومن الغريب حقا أننا لا نزال نتخبط فى حقيقة رسالة المرأة ، وأن تجهل المرأة نفسها حقيقة هذه الرسالة ، فتراها قد تركت طريقها الطبيعى المعبد إلى طريق آخر شائك ليس لها ولن تكون له إلا إذا فقدت أنوثتها وصارت امرأة مسترجلة لا تنتسب لأحد الجنسين .

ولا غرو فى أن هذا النوع من النساء قد أساء إلى المرأة المثقفة اساءة تركت المجال مفتوحا أمام أعداء المرأة لمحاربتها وانتقاص أعمالها، والتنديد بعدم صلاحيتها لادارة شؤون المنزل .

* * *

قرأت ما كتبته إحدى المجلات تحت عنوان "المرأة ، وهل تحكم العالم" فدهشت لمجرد السؤال ، لأن المرأة وإن كانت تحكم عالمها المنزلى الصغير بدقة وبراعة، فالتاريخ يحدثنا بأنها قد فشلت دائما فى توليها حكم البلاد ، وأنها كانت دائما امرأة أولا وأخيرا قبل أن تكون ملكة وحاكمة . ومن ذلك نرى أن مجرد هذا السؤال كان قفزة خطرة إذ هو تفكير فى أمر بعيد الاحتمال .

ولهذه المناسبة ، مناسبة تعليم المرأة ، أقول إن الكثير من الرجال والنساء ، يفهمون التعليم والثقافة على أنهما وسيلة من وسائل العيش ، فيتعلمون لنيل الشهادة فقط . وبعد أن ينال الواحد أو الواحدة شهادته التى يتذرع بها لنيل الوظيفة ، قلما نراه مهتما بزيادة معلوماته أو التوسع فى ثقافته .

ومن هذا فهم الجميع أن التعليم هو سلم لنيل الشهادة أو على الأصح للحصول على الوظيفة، وسرى هذا الاعتقاد إلى المرأة فرأت هى الأخرى أنه لابد لها من الوظيفة أيضا كى تثبت للرجل أنها تقف منه على قدم المساواة .

إن الثقافة كما يجب أن نفهمها جميعا غاية نفسها ، وليست الشهادة إلا كنشان معنوى يكافأ به المجتهد ، ولكنها ليست الغاية التى نسعى إليها بالتعليم . فالغاية من التعليم هى المعرفة أولا وآخرا ، والمعرفة وحدها هى الشهادة الصحيحة والتاج المرصع بأجمل الأحجار الكريمة ، فإذا لم نستطع أن نضيف إلى التاج ثمرة بحثنا وتنقيبنا من نفائس الأحجار ، فعلى الأقل يجب أن نحتفظ بأحجاره حتى لا تغير عليه أحداث السنين .

فإذا تعلم الرجل فإنما للعلم ذاته ، وإذا تثقفت المرأة فإنما للثقافة ذاتها ، أما وظيفته أو وظيفتها فى المجتمع ، فكل لما خلق له ، وكل لما يؤهله له استعداده وميوله الطبيعية .

فتعليم المرأة ليس إلا نورا يهديها إلى طريق وظيفتها الصحيحة فى الحياة ، وهو الذى يؤهلها لأن تكون فردا عليه واجب من اسمى الواجبات وأقدسها .

* *
*

وقد قرأت عن الملكة فكتوريا ملكة الانجليز أنها اشتهرت برقة الفؤاد وشدة الشفقة على عائلتها ، وقد أحبت زوجها الأمير " البرت " وعرفت له حقوق الزوج على زوجته ، وكانت فى حياتها معه لاترى فى نفسها إلا زوجة بارة لا ملكة قوية السلطان . ومما يحكى عنها أنها أرادت مرة أن تدخل على زوجها فى مكتبه حيث كان مشتغلا بالمطالعة ، فضربت الباب بيدها ، فسأل : من بالباب ؟ فقالت " ملكة انجلترا " . فلم يرد عليها . فعاودت قرع الباب ، فكرر السؤال : من بالباب ؟ . فأجابت " زوجتك " . ففتح لها الباب وقال مبتسما : " إنى أعرف أن زوجتى فى بيتى . لكنى لا أعرف أن ملكة انجلترا فيه " .

وهذا خير مثال يقدم للمرأة . فإن زوج أعظم ملكة فى العالم لم يرلها فى منزله إلا منزلة الزوجة من الرجل وهى لم تر فى نفسها إلا ذلك .

ويحضرنى الآن موضوع اعترضنى الأسبوع الماضى ، فقد عرضت على إحدى الجمعيات أن ألقى محاضرة فى موضوع : " المرأة وعضوية البرلمان " وأن أحبذ هذا الموضوع وأطالب للمرأة بهذا الحق ، فلم أتمالك ساعتها من الابتسام ساخرة ، وقلت فى نفسى : إذا كانت المرأة ستكون عضوا فى البرلمان أيضا ، فما الذى ستؤول اليه حال الرجل ياترى ؟ . لابد إذن أن تنقلب الأوضاع وتمحى صفة رب الأسرة من الرجل فيختص بشؤون البيت ، ويلاحظ الخدم ، ويشرف على شؤون المطبخ وإطعام الأولاد وتربيتهم ، ويشتغل بأمر تدبير المنزل ! ! . .

لعمرى أن مجرد التفكير فى مثل هذا الموضوع جناية فى حق المجتمع ، وتغيير للأوضاع وقلب للحقائق المجردة . فإذا جاز لنا أن نتسامح فى اشتغال المرأة بمهنة الطبيبة والممرضة والمطرزة ، لما تتطلبه تلك المهن من صفات لا تتوافر إلا فى المرأة ، فلا يمكن أن نستسيغ مطلقا أن نراها عضوا فى مجلس البرلمان .

وإن كنا قد تقدمنا مرحلة كبيرة فى طريق الحرية والسفور ، فلا يمكن أن يكون هذا دافعا لنا على الطغيان والاستبداد ، أما إذا كان اعتقاد المرأة بأنها قد ظلمت فى العصور الغابرة على يد الرجل قد سول لها الانتقام من الرجل ومنافسته فى رزقه ، فبئس الانتقام .

وإذا علمنا أن كل وظيفة تشغلها امرأة تقفل بيتا وتهدم أسرة ، عرفنا مقدار جناية المرأة الموظفة على المجتمع ، فهى بجنايتها المزدوجة تسىء إلى الرجل وإلى نفسها . فبينما تزاحم الرجل

فى أبواب رزقه تراها تهدم نفسها بنفسها ، فان كانت فتاة قد أضلتها شراهة المال ، فهى تقدم فى سبيل هذا المال أنوثتها وشبابها قربانا ، ولا تلبث أن تصير عاننا منبوذة من الجميع ، فتندم حيث لا ينفع الندم ، وإن كانت متزوجة فهى تبنى حجرا لتهدم بنيانا كاملا ، وهذا حق لا ريب فيه ، فمنزل المرأة الموظفة الذى تلعب الفوضى فى أنحائه ، ويسوده الظلام ويشمله الإهمال ، وينعدم فيه الذوق الفنى وهو ثمرة المعرفة والثقافة والتهذيب هو منزل مصيره الى الانهيار .

ولست أنهم أن تترك المرأة منزلها وأولادها فى رعاية الخدم يتطبعون بطبائعهم الوضيعة وميولهم المنحطة ، فيشبون عليها ، ويتخلقون بها ، كى تذهب هى الى عملها فى الديوان وتحصل بذلك على مرتب مهما ارتفع فهو لن يعوضها ما ستفقده فى تركها المنزل ماديا ومعنويا .

ولا يخفى علينا ما سينجم عن هذه الأوضاع المقلوبة وهذا الجبن الشنيع ، بفرار المرأة من مسئولية المنزل وتبعاته من أضرار خطيرة ، كما لا يخفى علينا شعور زوج الموظفة عندما يعود الى منزله بعد انتهائه من أعماله ، فلا يجد السعادة المنزلية التى كان يمكنه أن يجدها لو ازدان منزله بزوجة خيرة ، وربة بيت مثقفة حكيمة استطاعت باستقرارها أن تفيض على المنزل هدوءا وجمالا ، فضلا عن أن طبيعة الشرق لا تتفق بحال مع هذا التطرف الممقوت . ولا يمكن أن يكون سعيدا ذلك الذى يعرف أن زوجته تقضى يومها بين هذا وذاك من الرجال ، حتى وان ادعى بعضهم ذلك . اللهم إلا إذا كان هذا الادعاء فى سبيل غرض مادى يخفى ما بينهما من حب مفقود .

وخلاصة القول : إن للمرأة رسالة سامية فى الحياة تجبرها الطبيعة على أدائها ، ويجبرها الوطن الذى أباح لها أن تتهذب وتتثقف كى تستغل تلك الثقافة وذلك التهذيب فى العمل على السمو بهذه الرسالة وإبرازها فى أكمل وجوهها .

ولعمرى لو علمت المرأة أن كنوز الأرض لا تساوى تخليها عن أنوثتها ، وابتعادها عن مملكتها الصغيرة ، لاستماتت فى الدفاع عن هذه المملكة ، وعملت على رقيها والسمو بها ، ولنشطت لاستكمال رسالتها العظيمة فى الحياة ، تلك الرسالة التى يتوقف عليها مصير البلاد وسعادة الأمم .

زينب محمد حسين